خزائن المخطوطات بإقليم توات في الجنوب الجزائري: خزانتى كوسام، وسيدي احمد ديدي بتمنطيط نموذجا.

أ.مولاي أحمد*

تعتبر منطقة توات التاريخية (ولاية أدرار حاضرا) بأقاليمها الثلاث (توات، وقورارة، وتديكلت)⁽¹⁾ منطقة عبور وتواصل بين مختلف الشعوب القاطنة في شمال إفريقيا وجنوبها، وبحكم هذا الموقع الجغرافي الاستراتيجي شكل الإقليم نقطة عبور لجملة من القوافل التجارية⁽²⁾، وركاب الحجيج حيث كان الإقليم يعتبر ممر لمختلف حجاج المغرب عبر السودان، كل هاته العوامل كانت سببا في ربط علاقات الإقليم ثقافيا وسياسيا واقتصاديا داخل الجزائر كتلمسان والجزائر العاصمة وخارجها كبلاد السودان وفاس بالمغرب و مالي والنيجر، هذه العلاقات بأنواعها أفرزت إنتاجا فكريا هائلا تجسد في المخطوطات التي تمتلئ بها الخزائن الشعبية بأنواعها، وتشير الإحصاءات الأخيرة للمخطوطات بولاية أدرار أن عدد المخطوطات المتبقية بالخزانات هو 3000 مخطوط في حين أن هذا العدد كان 27000 مخطوط قبل عمليات النهب والسرقة التي تعرض لها المخطوط بالمنطقة⁽³⁾.

1- تعريف خزانة المخطوطات:

خزانة المخطوطات هي المكتبة الشعبية التي بها مخطوطات⁽⁴⁾، تكون في أغلب الأحيان تابعة لزوايا العلم والقرءان، حيث أنها تمثل مكتبة الزاوية⁽⁵⁾، وهي مركز غير رسمي حيث تعود ملكية المخطوطات فيه إلى شيخ الزاوية أو إلى مالك الخزانة والذي يرثها عن أجداده حيث تتم قسمة المخطوطات مثل باقي الإرث من المال والمسكن وغيرها، وغالبا يرث المخطوطات الابن الفقيه في العائلة⁽⁶⁾، حيث لا يخلو بيت من المخطوطات في مختلف الفنون المعرفية في إقليم توات بالجنوب الجزائري مثلا⁽⁷⁾.

2- خزائن مخطوطات إقليم توات (ولاية أدرار):

إن الناظر في خزانات المخطوطات التواتية، يجد من الوهلة الأولى أن غالب مخطوطاتها في الفقه واللغة، وغير ذلك من العلوم بدرجة أقل⁽⁸⁾، حيث يضم إقليم تيديكلت 11 خزانة للمخطوطات، في حين يحتوي إقليم توات الوسطى على 28 خزانة، بينما إقليم قورارة 14 خزانة، وكل هاته الخزانات غير مفهسة ولا تتوفر فيها أدنى شروط حفظ المخطوطات⁽⁹⁾.

2-1- العوامل الطبيعية المؤثرة في خزائن المخطوطات بإقليم توات:

تؤثر في مخطوطات الإقليم عوامل ترتبط بخصوصيات مناخ الإقليم حيث تتعرض المنطقة إلى تقلبات جوية بالغة التباين بين الحرارة و البرودة، ففي اليوم الواحد نجد

* - قسم علم المكتبات، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

المجلة الجزائرية للمخطوطات

بين الصيف والشتاء، خاصة في فصل الشتاء والربيع، وهو ما يؤثر في الصخور ويؤدي إلى تفتتها مسهلا بذلك عملية نقلها بواسطة الرياح⁽¹⁰⁾، فإذا كان هذا تأثيره في الصخور فكيف بأوراق المخطوطات، أما درجة الحرارة فمما لا يخفى على احد إن درجة الحرارة تصل في فصل الصيف بالولاية إلى 60 0م تحت الظل مما يؤدي إلى تشقق جدران الخزائن المبنية بالطين، والمسقفة بجذوع النخل، أما الرياح فتعصف بالإقليم رياح جنوبية تسمى الشهلي، وتعرف محليا باريفي، أما الرياح التي تنجر عنها الزوابع الرملية، وهي رياح جنوبية شرقية وتسمى بالفرنسية (sirocco)⁽¹¹⁾، تصل سرعتها إلى 100 كلم/سا في اغلب الأحيان، وهي نظرا لاتساع المساحة الصحراوية، أما بالنسبة لعامل الضوء أو النور فانه ونتيجة لأن مصدره أشعة الشمس المحرقة، يؤدي إلى زوال حبر الكثير من المخطوطات حتى ولو كانت في خزائن من حديد فان نجاتها مستبعدة.

أ- العوامل البشرية:

يعد الإنسان المسؤل الأول في اغلب الحالات عن مصير تراثه، لأنه يستطيع أن يتحكم في المؤثرات الطبيعية، ويمكن أن نخصر هذه العوامل البشرية في الآتي:

ب- العامل الثقافي⁽¹²⁾:

يشكل هذا العامل سببا في ضياع الكثير من المخطوطات بالمنطقة، حيث ان هناك بعض الأشخاص، الذين ورثوا مجموعات من المخطوطات تسببوا في إهمالها، وذلك بمنع الباحثين من الاطلاع عليها من جهة، وتركها للأرضة والحشرات تفعل فيها فعلتها من جهة أخرى، وتمثل صور خزانة سيدي احمد ديدي الملحقه بالبحث احد نماذج الإهمال لحفظ المخطوطات نتيجة عدم الوعي بأهمية حفظها⁽¹³⁾.

ج- العامل النفسي⁽¹⁴⁾:

ويلعب هذا العامل دورا كبيرا في إخفاء الكثير من مخطوطات الخزائن، على الباحثين، نتيجة عمليات السرقة التي يتعرضون لها من حين لآخر، إضافة إلى عمليات الإعارة للبعض المسؤولين أو الباحثين من داخل وخارج الوطن⁽¹⁵⁾.

د- العامل المادي⁽¹⁶⁾:

إن معظم المشرفين على خزانات المخطوطات بإقليم توات، لا يتقاضون راتبا شهريا أو منحة من اجل الحفاظ على المخطوطات، وهو ما أدى بالكثير منهم إلى بيعها بأثمان بخسة للسائح، الذين يمنحونهم العملة الصعبة من اجل الحصول على نسخ المخطوطات التي يحتاجونها⁽¹⁷⁾.

3- الخزانة الأولى: خزانة كوسام:

* أستاذ بقسم علم المكتبات جامعة وهران.

3-1- الموقع:

يقع قصر كوسام ببلدية تيمي، ويبعد عن مقر الولاية بحوالي 3 كلم 2 يبلغ عدد سكانه حوالي 12125 نسمة حسب إحصائيات سنة 2003، يجده شمالا قصري المنصورية وقصر ملوكة، وجنوبا ارض بور ، أما شرقا الطريق الوطني رقم 06 وغربا قصر بوزان، وتقع خزانة المخطوطات داخل القصر، تتربع على مساحة تقريبية تقدر ب 120م². (18).

3-2- النشأة:

مع نهاية القرن 13 هـ سطع نجم كوسام وأصبحت مركز إشعاع علمي وحضاري، يؤمه طلاب العلم ويرجع الفضل في هذه المكانة التي تبوأها كوسام في تلك الفترة إلى احد الأعلام البلباليين البارزين وهو العلامة السيد عبد الله بن احمد الحبيب البلبالي الذي ولد بملوكة عام 1250هـ، واخذ العلم عن أبيه السيد احمد الحبيب ولما تزلع في العلوم قصد كوسام فانشأ فيها المدرسة الكوسامية في شهر ربيع الثاني عام 1278هـ، أي بعد أن بلغ 28 عام فتولى القضاء بالديار التواتية عام 1328هـ (ودار القضاء لازالت باقية آثارها بجانب الخزانة إلى اليوم).

3-4- وصف المكتبة:

بنيت مكتبة (خزانة المخطوطات) كوسام القديمة كباقي الخزانات الأخرى من الطين المسقف بمجذوع وجريد وكرناف النخيل، تبلغ مساحتها حوالي 120م²، وهي تعتبر من بين المكتبات القليلة المفتوحة بالولاية، رفوف الكتب من الطين المرمة حاليا بالاسمنت، على شكل خزانات صغيرة في الجدران، المغلقة بأبواب من الخشب والزجاج⁽¹⁹⁾، جدرانها الحالية مازالت من الطين وان كانت في الداخل كما تظهر في الصورة بالرمل الممزوج بالاسمنت وتعاني كباقي الخزانات الأخرى من مختلف وان كانت تعتبر أحسنهم حالا من حيث الظروف الطبيعية القاسية السابقة الذكر، إلا أن معظم المخطوطات بالخزانة مصابة إن لم تكن كلها فهي في حالة جد خطيرة تحتاج إلى عمليات الصيانة والترميم الاستعجاليين، حيث أثرت فيها العوامل الطبيعية القاسية كالحرارة والرياح إضافة إلى القوارض والحشرات، وعلى العموم فان حال خزانة كوسام يعكس الصورة الحقيقية لمخطوطات الخزائن الأخرى، من حيث الحالة المادية والهيكلي العام للخزانة، تحتوي المكتبة على عدد هائل من المخطوطات إلا أن العدد المنسوخ و الذي يمكن الاطلاع عليه هو 170 مخطوط في مختلف التخصصات وقد بلغت عدد المخطوطات المعادة للنسخ حوالي 200 مخطوط في أبريل من السنة الجارية، ويبدو أن أحدا من الباحثين قد قام بتعليم السي الطيب بطرق الفهرسة للمخطوطات، فقام هذا الأخير بمحاولات عديدة محتشمة، وان كانت هذه الفهرسة تفتقر إلى المواصفات العلمية العالمية لقواعد فهرسة المخطوطات الا أنها تعتبر مبادرة حسنة، من صاحب الخزانة من أجل

المجلة الجزائرية للمخطوطات

الانفتاح مع مختلف الباحثين، عكس ما هو منعدم في الكثير من خزانات توات، كمكتبة أنزجير التي لا يعرف حتى سكان القصر مكان تواجدها، وتحتوي المكتبة على فهرس محتشم للمخطوطات المنسوخة فقط.

تتكون الخزانة من ثلاث غرف ومخزن للحفظ، بالإضافة إلى المرافق الضرورية، وتحتوي المكتبة على بعض التجهيزات البسيطة المتكونة من بعض الأفرشة، كراسي، طاولات، وبها أيضا بعض التجهيزات الحديثة وان كانت غير مستغلة كما ينبغي كجهاز إعلام إلى وجهاز ماسح ضوئي وآلة ناسخة، والقاعة الكبرى بالمكتبة يستقبل فيها مشرف الخزانة زواره من الطلبة والأساتذة وحتى الأجانب⁽²⁰⁾.

3-5- المشرف الحالي على الخزانة:

يشرف على الخزانة السيد شاري الطيب وهو احد أحفاد الشيخ الأول للزاوية، يشغل معلم قرآن يتصف بكرمه وحسن ضيافته، ورحابة صدره وهو متواجد بالخزانة يوميا، ولا يفارقها إلا للضرورة ويقوم هذا الأخير بنسخ العديد من المخطوطات، من اجل المحافظة على المخطوطات الأصلية التي أثقلت كاهلها الأرضة، والظروف الطبيعية القاسية، كأشعة الشمس القوية والجفاف والحشرات، وكلها عوامل معادية للورق، لا يتقاضى صاحب الخزانة أي أجرة مقابل ما يقوم به من إشراف على الخزانة، وحسب الزيارة الأخيرة التي قمت بها للخزانة أكد لي عن عدم تقبله لأي مقابل، وهو يريد فقط باللسان الدارج "العافية" أي الهناء.

3-6- الاطلاع على المخطوطات:

هذه النقطة تعد العائق الكبير الذي يواجه الباحث من الوهلة الأولى، وهو ما يجعل الكثير من الباحثين يستسلمون لذلك فيفشلون، ولكن في حقيقة الأمر لهذا الأخير أسبابه التي تدفعه في عدم فتحه الباب وبالأخص هذه الخزانة لكل الباحثين، و خاصة بعد حالات السرقة التي تعرضت لها الخزانة من بعض الزوار إضافة إلى حالات إغارة المخطوطات واستلافها التي تكون من طرف بعض الباحثين والمسؤولين خاصة، سواء من داخل أو خارج الوطن على حد تعبير المشرف على الخزانة، والتي لا يمكن استرجاعها إلا بعد عناء طويل، وهو ما جعله يمنع إغارة المخطوطات نهائيا والاكتفاء بالاطلاع في عين المكان فقط⁽²¹⁾.

4- الخزانة الثانية: خزانة سيدي احمد ديدي بتمنيط:

4-1 الموقع:

تقع خزانة سيدي احمد ديدي بتمنيط، في الناحية الشرقية من تيمي، وتتبع إداريا لبلدية تيمي وتبعد عن مقر الولاية بـ5 كلم⁽²²⁾.

4-2-النشأة:

تأسست هذه الخزانة مع لجوء سيدي محمد بن البكري، الذي أسس الزاوية البكرية بأمر من أبيه سيدي البكري، يرجع الفضل في بزوغ شمس الزاوية البكرية إلى احد أعلامها الذي ظهر في نهاية القرن 11هـ (17م). وهو العلامة سيدي محمد بن البكري بن عبد الكريم، هذا الأخير الذي أسس الزاوية البكرية بأمر من أبيه سيدي

المجلة الجزائرية للمخطوطات

البكري وقد برز بهذه الزاوية ثلاثة من أعلامهم: الشيخ سيدي محمد بن البكري بن عبد الكريم والشيخ سيدي لحسن بن سعيد البكري والشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمان بن الطيب التتلاي، وهي من أقدم وأغنى المكتبات بالمنطقة مؤسسها الأول هو الشيخ سيدي ميمون بن اعمر وذلك في اواخر القرن 9هـ⁽²³⁾، و ظلت المكتبة البكرية لمدة ثلاثة قرون مجموعة وموحدة، يشرف عليها عالم من ابناء العائلة، وفي سنة 1244هـ قسمت المكتبة بين افراد العائلة قسمة تراضاها الجميع، فكانت في تمنطيط خزانة الشيخ سيدي احمد ديدي، وخرانة سيدي الحاج محمد القاضي وخزانة سيدي محمد الصالح،⁽²⁴⁾.

4-3- المشرف الحالي على الخزانة:

يشرف على الخزانة حاليا الشيخ الحاج احمد بكر اوي خليفة الشيخ البكراوي سابقا، الذي توفي خلال الأربع سنوات الأخيرة، يشتغل كشيخ بالمدرسة الدينية سيدي احمد ديدي، وبالإضافة إلى إشرافه على الزاوية ودار الضيافة يقوم بالإشراف على الخزانة، لان القرار الأول والأخير يعود له، خاصة في حالات الزيارات إلى الخزانة فهو صاحب المفتاح، لهذا الشيخ أعوان من الطلبة القدامى بالمدرسة ومن بينهم ابن الشيخ السابق للمدرسة، واحد أحفاد الشيخ المغيلي والذي قام بإدخالنا للخزانة أثناء الزيارة⁽²⁵⁾.

4-5- وصف المكتبة:

بنيت هذه الخزانة على غرار الخزائن الأخرى بالبناء الطيني والذي سقفه من جذوع النخل وكرنافة ليعطي شكلا متجانسا في السقف⁽²⁶⁾، تتواجد الكمية الكبيرة من مخطوطات الخزانة على لسان محدثنا شيخ الزاوية الخليفة الحاج احمد الشيخ الحالي للزاوية في خزائن كبيرة جدا لا يمكن للإنسان الحالي إن يحملها وذلك لكبر لحجمها وهي في شكل صناديق أرضية حسب وصفه من صن الإنسان القديم، ثم إن المكان المتواجدة به هذه الخزائن لا يمكن لكل الدخول إليه نظرا لخطورة المكان الذي يكاد ينهار ورغم الدعم الذي قدمته الدولة لهذه المكتبة والمتمثل في مكان يوفر على الأقل منع الأرضة من الدخول إلى المخطوطات إلا أنها لا زالت على حالها ولا نعرف لماذا لم يتم تحويل هذه المخطوطات إلى المكان الجديد الذي يضمن ادبي الشروط للحفاظ على هذه المخطوطات⁽²⁷⁾، ثم إن المخطوطات المعروضة للزوار فهي نقطة من بحر لازالت تحت الإنقاذ يستغيث بالمختصين والمهتمين بالمجال وان كان الكل يهم اليوم أمرها وتبين الصور المرفقة بالبحث عددها والمكان الذي تحتفظ فيه، لا تحتوي هذه الخزانة على محاولة فهرسية كما سبق مع الخزانة السابقة.

بلغ عدد مخطوطاتها في سنة 809هـ-1055م. 3600 مخطوط وذلك في عهد مؤسسها الثاني سيدي

الشيخ البكري، أما ما تبقى إلى حد الآن والذي يمكن الوصول إليه 950 مخطوط فقط⁽²⁸⁾.

4-6- الاطلاع على المخطوطات:

المجلة الجزائرية للمخطوطات

من الصعب أن يطلع الباحث على أي من مخطوطات المكتبة بالكمية اللازمة، وان كان المشرفون على هذه الخزانة قد وضعوا عدد من المخطوطات في خزانة من الخشب والتي يمكن الاطلاع عليها وصاحب الخزانة لا يفارقك للحظة خوفا حتى من إمساكها بالطريقة غير اللائقة وان كان هذا الأمر في الحقيقة من حقه.

الخاتمة:

من خلال ما سبق يمكن القول أن وضعية المخطوطات في خزائن إقليم توات مازالت مزرية، والعالم اليوم يتحدث عن الرقمنة والمكتبات الرقمية للمخطوطات، مما يتطلب التدخل الاستعجالي من طرف الجهات الوصية في البلاد من اجل إنقاذ ما تبقى من هاته المخطوطات، إضافة إلى تشجيع أصحاب الخزائن برواتب من اجل الحفاظ على المخطوطات المتواجدة لديهم والقيام بدورات تكوينية على الأقل المبادئ الأولية لعمليات الصيانة والترميم، دون أن ننسى قضية محاولة فتح الحوار مع أصحاب الخزائن وإقناعهم في الكشف عن مخطوطاتهم ورقمنة من اجل الحفاظ عليها من جهة وإتاحتها للباحثين من جهة أخرى.

الهوامش:

- (1) احمد، جعفري، رجال في الذاكرة، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2004، ص.10.
- (2) منشورات جمعية الدراسات و الأبحاث التاريخية لولاية أدرار، مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2000.
- (3) انظر خريطة مواقع الخزانات عبر الولاية الشكل رقم-01.
- (4) مبروك، مقدم، المخطوط داخل الخزانة الشعبية خلال نهاية القرن 19م. بتوات قورارة وتدكلت، أدرار، جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية لولاية أدرار، 1994، ص.10.
- (5) الصديق، حاج احمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات، أدرار، مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2006، ص.58.
- (6) أحمد مولاي؛ العربي بن حجار ميلود، رقمنة المخطوطات في الجزائر: بين الواقع والآفاق، قسنطينة، الملتقى الوطني حول الرقمنة داخل المكتبات الجامعية: الواقع، الرهانات والآفاق يومي 19 / 20 ماي، 2007.
- (7) عبد الكريم، عوفي، التراث الجزائري المخطوط بين أمس واليوم، مجلة آفاق للثقافة والتراث، س.5، ع.20-21، ابريل 1998، ص.107، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1998.
- (8) بكري، عبد الحميد، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من ق.9 إلى ق.14هـ، عين ميله، دار الهدى للطباعة والنشر، 2006، ص.46.
- (9) انظر خريطة الاقاليم الشكل رقم-02.
- (10) عمر لقمان بوعصبانة، حال المخطوطات بالمكتبات الخاصة بشمال الصحراء، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع.01، جوان 2003، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ص.184.
- (11) الصديق حاج احمد، المرجع نفسه.
- (12) احمد مولاي، التاريخ الثقافي لإقليم "توات" ادرار، بحث في إطار تحضير السنة النظرية لشهادة الماجستير، وهران: قسم علم المكتبات، جامعة السانبا، 2006، ص.65.
- (13) عمر لقمان بوعصبانة، المرجع نفسه.
- (14) احمد مولاي، المرجع نفسه.
- (15) عمر لقمان بوعصبانة، المرجع نفسه.
- (16) احمد مولاي، المرجع نفسه.

المجلة الجزائرية للمخطوطات

- (17) انظر خريطة موقع خزانة كوسام الشكل رقم -3-
- (18) الصديق حاج احمد، المرجع السابق، ص.60.
- (19) انظر صور خزانة كوسام الشكل رقم -5-
- (20) الزيارة الميدانية لخزانة كوسام بتاريخ 22-10-2008.
- (21) مقابلة مع السيد شاري الطيب بتاريخ 22-10-2008- على الساعة 10:00 صباحا.
- (22) انظر خريطة موقع خزانة سيدي احمد ديدي الشكل رقم-4-
- (23) بكري، عبد الحميد، المرجع السابق، ص.47.
- (24) الصديق حاج احمد، المرجع السابق، ص.65.
- (25) الزيارة الميدانية لخزانة سيدي احمد ديدي يوم 24-10-2008.
- (26) انظر صور خزانة سيدي احمد ديد الشكل رقم-6-
- (27) مقابلة مع شيخ الزاوية البكرية الشيخ الحاج احمد بتاريخ: 10-05-2007 على الساعة: 18:00 زوالا.
- (28) بطاقة تعريفية بالخزانة متواجدة بالخزانة.